

أثر أبي العلاء المعرّي في الشعر العربي المعاصر

دکتر شهریار نیازی

استادیار دانشگاه تهران^۱

دکتر حسین گلی

استادیار دانشگاه اراک

(از ص ۲۵ تا ص ۴۶)

تاریخ دریافت مقاله ۸۹/۰۷/۲۸، پذیرش ۹۰/۰۱/۲۸

چکیده:

ابوالعلاء معری در ادبیات کلاسیک عربی صاحب فکر و اندیشه ویژه‌ای است. او در اوج باروری و غنای ادبیات عربی زیسته است. این شخصیت ادبی و فکری، بسیاری از ادبای بعد از خود را به شیوه‌های گوناگون تحت تأثیر قرار داده است. شاعران معاصر نیز با کمک گرفتن از ادبیات او، جریان ابداعات خود را رونق بخشیدند و خیال شعری خود را از این رهگذر بارور ساختند. سخن‌سرایانی همچون: احمد شوقی، محمود سامی البارودی، عبدالوهاب البیاتی، أدونیس و... به روش‌های متفاوت به دنباله‌روی از ابوالعلاء معری پرداختند و در جهت غنای شعر خود، گاه ابعاد ژرف شخصیت او را برجسته کردند و گاه به معارضه با او برخاستند. از این رو، فراخوانی ابوالعلاء در اشعار آنان اقدامی نو در به کارگیری ادبیات غنی گذشته می‌باشد و تنوع خیال را سبب می‌شود. از این روی، شاعران معاصر عربی جهت به تصویر کشیدن تجربه‌های شعری خود، ابعاد شخصیتی او را در شعرشان به کار گرفتند و از او تأثیر پذیرفتند.

واژه‌های کلیدی: ابوالعلاء المعری، الشعر الجدید، التوظیف، المعارضات.

۱. استادیار دانشگاه تهران Shniazi@ut.ac.ir

المقدمة

لقد تنوعت اساليب البيان للإبداعات الفنيّة والشعرية في العصر الحديث مواكبة مع تغييرات المجتمع الثقافيّة و السياسيّة و الأدبيّة فشاعت ظاهرة التأثير بالتراث بما فيه التراث الأدبي على نحو لم يعرفه الشعر من قبل، حتى أصبحت سمة من ابرز سمات هذا العصر، وكثيراً ما ارتدّ الشعراء المعاصرون إلى التراث الأدبي تعبيراً عن تجاربهم المعاصرة إلى جانب إثراء ادبهم، وهذا لا يتوقّر لديهم إلا بالعودة إلى التراث والتأثر بعمله و استحضار صوت الشعراء القدماء، و منهم ابوالعلاء المعرّي بشخصيته المتميزة و أدبه الرفيع و موهبته الفريدة، و يسعى هذا المقال إلى فحص امكانية الرّبط بين تأثير ابي العلاء المعري في الشعر المعاصر بطرق مختلفة، و توظيف شخصيته في ادب الشعراء الكبار؛ كعبدالوهاب البياتي، و ادونيس، و غيرهم، لذلك قد بادر هؤلاء الشعراء إلى استدعاء ابي العلاء، و استحضار صوته خلال النصف الاول من القرن العشرين فهذا التعامل مع التراث الأدبي المتمثل في ادب المعرّي لا ينحصر في توظيفه و استدعاءه. بل تعداه إلى المعارضات و احتذاء نهجه الفنّي في اللّزوميات، اذن يهتم الباحث بدراسة ادب المعرّي و اثره في الشعر العربي المعاصر، و تحليل ابعاد التجارب المعاصرة مستمداً من محات شخصيته، بعد أن يمهد الطريق للدخول في صلب الموضوع بتعريف مختصر عن ابي العلاء المعري، و شرح ملامح شخصيته المتميزة و معالم ادبه الرفيع:

مكانة أبي العلاء المعري في الادب العربي

لأبي العلاء المعري مكانة خاصة في الأدب العربي لتعرفه على الفلسفة والثقافات المختلفة و مميزاته الخلقية، و عزلته عن الناس، و عدم التعود على الحياة العادية، و براعته الخاصة في الأدب و الشعر و الرؤيوة النقدية، لذلك يعتبر عموداً صامداً في الأدب العباسي، فيعتمد على ما بناه من الفكرة التحريرية و النظرة العميقة إلى الحياة، لذلك هو مصداق حقيقي للمثل «كلّ ذي عاهةٍ جبار» فاستطاع أن يظهر كشاعر عملاق، لا في الأدب العربي فحسب، بل في الآداب العالمية، قال الدكتور طه حسين في شأنه «كان هؤلاء الشعراء الثلاثة بشار والمتنبي، وأبو العلاء

كباراً في أنفسهم، وكانت كبريائهم أظهرهما سيطر على حياتهم من خصلة.» (طه حسين، ص ٧٤)

ثم وازن بين كبرياء الثلاثة و قال «أما كبرياء أبي العلاء فقد جرّته مزاجاً من الألم و اللذة في اثناء حياته الطويلة، ولكنه ألم يظهر النفس و لا يفسدها، ولكنها لذّة ترفع النفس و لا تضعها و لا تضعفها» (المصدر نفسه، ص ٧٥)

فقد اتسمت شخصية أبي العلاء بالتشاؤم في الحياة و برز هذا التشاؤم في آثاره، و اتخذ موقفاً سلبياً تجاه الحياة، و قد تحمل لأجل هذا الموقف مصائب شتى، و قد ذابت شخصيته في الشدائد و المحن.

ترجع براعة أبي العلاء إلى التعبير عما تنفعل به نفسه في مختلف ظروف حياته، فأصبح من الشعراء الكبار الذين جعلوا عامة شعرهم و أدبهم صورة حية لاتجاههم الفكري و النفسى، و قد ظهرت شخصيته جلية واضحة في أدبه.

و قد شجع هذا الأمر كثيراً من الشعراء القدامى و المحدثين على أن يتأثروا به علماً و أدباً و بطرق مختلفة حتى كأنه في شعر الشعراء حتى بيت روح الابداع و الفكرة العميقة في دمهم.

أثر أبي العلاء في الشعر المعاصر

ليس من العجيب أن يكون أبو العلاء بارعاً في التصوير، صادقاً في التعبير لا يشوب أدبه التملق و التكسب، فيكون لشعره صدى عميقاً في نفوس الشعراء المحدثين، لذلك وجد هؤلاء الشعراء في موقف أبي العلاء مثلاً أعلى لهم مستحقاً للإحتذاء و التأثر بلمحات أخلاقه و أدبه المتميز، كما حظى أبو العلاء باعجاب المحدثين بزعتة الانسانية إذ يظهر بارزاً في التراث الأدبي إذن الاتصال مع هذا المصدر الغني في التراث يغني الكثير في الشعر الحديث قبل انحداره في دروب الضعف التي سيطرت عليه عدّة قرون طويلة.

و نستطيع أن نلمس علاقة هؤلاء الشعراء المعاصرين الوثيقة بأبي العلاء و شعره في الاشارات التي اعترفوا بها بالتلمذ عليه و حبه له و الاحساس بالأمن في صحبته، فيقول

صلاح عبد الصبور في هذا الصدد: «إن أبا العلاء عندي هو ثلاثة ارباع الشعر العربي و الربع الباقي يتقاسمه أبونواس و ابن الرومي و المتنبي و غيرهم.» (صلاح عبدالصبور، ص ١١٢) و يقول الزهاوي رافعاً من شأن أبي العلاء معترفاً بفضلته:

و إن أكبر شيء فيك يعجبني سخرية بتقاليد و عصيان
إني تتلمذت في بيتي عليك و إن أكلت عظامك أزمان و
أزمان

أصابني في زمانى ما أصابك من حيف فمارد هذا الحيف إنسان
(هلال ناجي، صص ٨٢، ٨٣)

أما تأثير أبي العلاء في الشعر الحديث فيتبلور في الاساليب المختلفة و هي:

١. تقديم بيت أو أبيات من أبي العلاء المعري

٢. احتذاء النهج الفني المسمى بلزوم ما لا يلزم

٣. توظيف شخصية أبي العلاء و استخدامها تعبيراً فنياً

٤. المعارضات الشعرية للشاعر أبي العلاء

فهذه الطرق و إن تختلف نوعيتها و ميزاتها عن بعض، لها أهمية خاصة و تأثير وافر في تمكن الشاعر المعاصر استمداداً من سموه الأدبي لإنقاذ الأدب الحديث من التدهور و الضعف.

تقديم بيت أو أبيات في القصائد

فقد تعود بعض الشعراء في العصر الحديث على التقديم لبعض قصائدهم بيت أو أبيات لأبي العلاء المعري و في ذلك مافيه من الإشارة إلى فضله فالشاعر محمود طه قدم لقصيدته «امرأة و شيطان» بيت أبي العلاء:

لحاك الله يا دنيا خلوباً فأنت الغادة البكر العجوز

فنازك الملائكة تشير إلى فحوى القصيدة مشيرةً إلى تقديم هذا البيت كرمز لما تحويه القصيدة

لأنّ الشاعر لا يقدم البيت هذا عفويّاً في قصيدته. (الصومعة و الشرفة الحمراء، ص ٢٧٧)
إلى جانب القصائد الشعرية قد قدّم بعض الكتاب فصولاً من كتبهم بأبيات للمعرّي من
ذلك كتاب «فجر الحياة» للعالم الامريكى جوزيف راشن الذى صدر الفصل الثالث منه ببيت
أبي العلاء:

كمن يحدو و ليس له بغير
و من يرمى و ليس له سهام
(جوزيف هـ. راشين، ص ٣٥٦)

الكاتب في تقديمه لهذا البيت يلمح إلى الصعوبة البالغة في تناول الموضوع دون أى معرفة و
اسباب و وسائل، كما قدّمت الشاعرة ملكة عبدالعزيز لقصيدتها «كبرياء الخلق» ببيت
ابى العلاء:

و أعجب منى كيف أخطيء دائماً
على أننى من أعرف الناس بالناس
(ديوان اغنيات الليل، ص ١٢٣)

والقارىء أو المتلقى يستوعب سريعاً ماينويه الشاعر بتقديمه لبيت ذى شجون كهذا
لأنّ المطلع أو مستهل القصيدة يدلّ على الفحوى و يقوم بدور الباب للدخول فى
القصيدة إذن الاستمداد من بيت كهذا له حقل دلاليّ واسع، هذا هو القدر الذى حصلنا
عليه فى تأثر الشعراء المعاصرين بهذا الاسلوب و ربّما يكون أكثر من أن يعدّ.

انتهاج النهج الفنى المتمثل فى اللزوميات

لا ينحصر تأثير أبي العلاء فى الشعر المعاصر فى طريقة واحدة بل يتعداه إلى انتهاج النهج
الفنى المعروف بلزوم ما لا يلزم فأنشأ بعض الشعراء دواوين شعرية التزموا فيها بالمبادئ التى
التزمها ابوالعلاء و من هذه الدواوين «لزوميات مخيمر» و صاحبه هو أحمد مخيمر الذى اصطنع
للزوم و كتب اشعاره فى ذلك الديوان و قد صرّح فيه باقتفائه لأثر أبي العلاء قائلاً:
«و على الرغم من أننى لا أملك قدرة المعرّي اللغوية و لا تؤثّر فى نفسى ظروف كظروفه، فقد

رأيت أن أعارضه فيما ذهب إليه بهذا الضرب من الكلام الذي اختار هو لنفسه و قيدها به و ساقها إليه و قد دفعني إلى ذلك أني أردت أن اسلك في التعبير سبيله التي سلكها و أن أجعل لشعري نفس التأثير الموسيقى الذي أراد أن يجعله لشعره» (علي الجندي، ص ١٧) و معظم لزوميات أحمد قصيرة و لاتجاري لزوميات ابى العلاء اطلاقاً كما يعترف نفسه بذلك لكن في جملتها، خفيفة الظل، عذبة الروح، خالية من الافكار المزدحمة المعقدة و الأخيلىة الجامحة، و يقل فيها التكلف و الغرابة و هى نتاج تأملات فلسفية و اجتماعية و صدى احداث مختلفة، و انعكاسات احلام و آلام و آمال.

و من ابياتها:

لايلبث الدهر أن تترى عجائبه	حتى تمدّ إلى المريخ أسيافا
قذيفة الدر مرت سوف تتبعها	قذيفة تجعل المحسوس أطيافا
إذا صعدا إلى المريخ بعد غدٍ	و هزنا الشوق زرنا الأرض أضيافا

(المصدر نفسه، ص ٥٦)

إن حرص الشاعر أحمد مخيمر على الشعر اللزومى هذا لاضير فيه فمع اعترافه بالقصور يعدّ بحق تلميذاً باراً مخلصاً للمعري، و قد التزم احمد مخيمر بقافيتين فى شعره متأثراً بابى العلاء المعري فى اللزوميات.

و قد اشتمل ديوان «لزوميات و قصائد أخرى» لعبد اللطيف عبدالحليم على قصائد و مقطوعات جارى فيها أباالعلاء فى التزام مالايلىزم، و من الأمثلة على ذلك هذه الابيات:

لا تشعلى القلب إنما انطفأت	رغابه حين ضمها الوسن
أوتو قظى الريح إنها خمدت	وردها عن جماحها أسن
احسبني لا الخداع يبسم لى	ولا يرانى فى جذبه رسن

(لزوميات و قصائد اخرى، صص ٣٧-٩٨)

يبرز تأثر الشاعر أحمد مخيمر بالمعري و اضحاً فى تمسكه بقافيتين (سن). و يبدو أن هذا الشعر اللزومى لم يقع فى شعر المعاصرين، إذ استثنينا مخيمر و

عبد اللطيف إلا فلتات و من غير ارادة، لذلك لانشعر به، و هم غالباً لا يفتنون له أو على الأصح لا يابهون له و لا يعنون به، و لعلّ السبب يرجع إلى أن أبا العلاء قد تمسك بالأسس القديمة إلى حدّ بعيد و أكثر من الابداعات الجديدة وايضاً لأنّ اللزوميات و اسلوبها لم تعد مناسبة في التعبير عن التجارب المعاصرة إلى جانب قصور الشعراء المحديثين عن المهوبة التي كان يمتلكها أبو العلاء و هو ما ظهر بوضوح في اشعارهم.

توظيف شخصية أبي العلاء في الشعر المعاصر

رغب الشعراء المعاصرون في توظيف شخصية أبي العلاء المعري في اشعارهم و استخدامها تعبيراً فنياً لحمل بعد من أبعاد تجاربهم الفنية فأصبحت وسيلة تعبيرية في ايديهم يعبرون من خلالها عن رؤيتهم المعاصرة فاعتنى الشعراء كثيراً بأبي العلاء رمزاً للقضايا الاجتماعية و الفكرية و الفنية، وصلت علاقة الشعراء به إلى حدّ أصبح محور قصائد كاملة كقصيدة «حوار مع أبي العلاء» لنجيب سرور في ديوانه (لزوم ما يلزم) و قصيدة «محنة ابي العلاء» و قصيدة «موعد في المعرفة» للبياتي و قصيدة «أبو العلاء» لفاروق شوشة و قصيدة «أبو العلاء» للأخطل الصغير و «أبو العلاء المعري» لأحمد محرم و قصيدة «من القاهرة إلى المعرفة» لمحمد العلاتي إلى جانب القصائد الكثيرة لمحمد مهدي الجواهري و محمد اليزم و بدوى الجبل و عمر أبو ريشة و غيرهم ممن شاركوا في المهرجان الألفي لأبي العلاء الذي أقيم قبل سنوات في مسقط رأسه في مدينة معرّة النعمان.

و الآن نقوم بتحليل القصائد الشعرية التي وظف فيها اصحابها شخصية ابي العلاء

المعري:

عبد الوهاب البياتي:

لقد اهتم البياتي بتوظيف ابي العلاء بشكل قناعي في قصيدته المشهورة «محنة ابي العلاء» اذ يتضح التداخل بين الشخصيات الموظفة واضحاً منذ البداية لأنه وظف إلى جانب ابي العلاء

شخصية «جاليليو» المشهورة الذي كان قد اكتشف دوران الأرض و عدم ثبوتها، فهذه القصيدة تتكون من عشرة مقاطع: «فارس النحاس، العباءة و الخنجر، المغنى و الأمير، سقط الزند، حسرة في البغداد، قمر المعرة، لزومية، لتكن الحياة عادلة، الضفادع، و لكن الأرض تدور» و تبدأ بهذه الابيات:

لمن تغنى هذه الجنادب
لمن تضىء هذه الكواكب
لمن تدق هذه الأجراس
و اين يمضى الناس؟
هذا بلا أمسٍ و هذا غده قيشارةُ خرساء
وذا بلا وجهٍ، بلا مدينةٍ، وذا بلاقناعُ

(سفر الفقر و الثورة، ص ٢٥)

هذه القصيدة انتشرت في ديوانٍ مسمى بـ «سفر الفقر و الثورة» و هو في هذا الاطار من اشد قصائد البياتي دلالة على المرحلة الجديدة التي بلغها شعر البياتي، في تطوره و اكثرها وضوحاً للتعبير عن مشاعره الصادقة تجاه المجتمع و يوظف شخصية ابى العلاء في الأبيات التالية:

حرمتنى من نعمة البيضاء
علمتنى ثقل غياب الكلمات و عذاب الصمتِ و البكاء
والباب أغلقت إلى الأبد
ثلاثة منها أطل في غد عليك
مقبلاً يديك
لزوم بيتى و عمائى و اشتعال الروح في الجسد

(المصدر نفسه، ص ٢٦)

يتردد الشاعر بين الشخصيتين في الأبيات المذكورة معبراً عن تجربة شعرية هي الانتقال من

مرحلة إلى أخرى و استخدام نوعية الكلمات «ثقل غياب»، «عذاب الصمت و الميت» ... تدلّ على ما تجسّم البياتي من المحن و المصائب و في الأبيات الأخيرة دلالة واضحة على أبيات ابي العلاء:

أرانى فى الثلاثة من سجونى فلا تسأل عن الخبر النَّبيثِ
لفقدى ناظرى، و لزوم بيتى و كون النفس فى الجسدِ الخبيثِ
(لزوم مالا يلزم، ص ٢٤٩)

و ما تستحق لإستدعاء شخصية أبي العلاء و التقنع بها هى عزلته و المبالغة فى تمجيد العقل و حياته الهادئة و الصمت الذى اختاره تجاه المحن و المشاكل، إذن البياتي وظّف أبا العلاء فى شعره ليعبر عن المحن و المصائب التى مرّت به، فأضفى اللون الايجابى لشخصية ابي العلاء و عزلته من الحياة فيتمثل ذلك فى تدخل البياتي المباشر للتصريح بالمعانى التى يريدها و قد جرى ذلك فى مقطع «سقط الزند» من قصيدة «محنة ابي العلاء» إذ عرض الشاعر فيه صورة لمجلس الأمير و الشعراء و الأدعياء المناققين من حوله و هم ينشدون، و يبلغ الشاعر ذروة السخرية فى تصوير جبروت الحكم حين يجعل أحد الشعراء ينشد:

مولاي هل يخفى القمر مجلسه كان يعجّ بدواب الأرض و الهوام
(سفر الفقر و الثورة ، ص ٢١)

و يسخر من شويعر هكذا حتى يقول فى جوانب سؤال «هل يخفى القمر»؟

و يغضب الأمير
و يصفع الشاعر، فالقمر
يغيب كل ليلة فى صفحة الغدير

(المصدر نفسه، ص ٣٢)

غير أن الامير يغضب لهذا التشبيه لأن القمر يغيب كل ليلة فى صفحة الغدير... و هنا يتدخل الشاعر فى طبيعة القصيدة، فيتحدث بنفسه عن أبي العلاء كأنه لم يسعفه البناء الشعري على الاستمرار بالصورة الدرامية إلى نهايتها فيقول متحدثاً عن الفرق بين أولئك الأدعياء

المنافقين من الشعراء و بين ابي العلاء:

كان زماناً داعراً، يا سيدى، كان بلاضفاف
الشعراء غرقوا فيه و ماكانوا سوى خراف
و كنت أنت بينهم عراف
و كنت فى مادبة اللثام

:

كان القوافى أصبحت، يا سيدى، كالبعلة العرجاء
كان زماناً داعراً، كان بلا حياء

(المصدر نفسه، ص ٣٣)

فصّور الشاعر، الظروف الأدبية و الفرق الكبير بين الأديب الموهوب و بين الشويعر
المزيف فلا يستطيع الشاعر المعاصر أن يبوح بهذه الملامح إلّا من خلال شخصية المعرى و
مايشير اغراب القارىء هو أن البياتى يستدعى شخصية أبى العلاء و يوظفها إلى حدٍ لا يمكن
مباشرةً و إذا يقتضى الأمر يجعل القناع جانباً و يدخل مباشرةً فى صلب ما ينويه و يقول
مايريد.

فى المقطع الخامس «حسرة فى بغداد» ظهرت براعة البياتى و حسن استخدامه للشخصية
التراثية إذ توحد فيه الشاعر بمثاله الرمزي (المعرى) اتحاداً تاماً فأبو العلاء يحن لمفارقة
بغداد و دجلة تماماً، كما أحس ذات يوم و هو فى بغداد بالحنين إلى موطنه:

أبحث عن سحابة

خضراء، عنى تمسح الكآبة

تحملنى

إلى برارى وطنى

إلى حقول السوسن

(المصدر نفسه، ص ٣٤)

في هذه الأبيات يصور البياتي أو بعبارة دقيقة يوظّف رحلة المعري إلى بغداد و اقامته فيها و يصف بصورة دقيقة حنينه إلى بلدته «معة النعمان» ولا سيما اذا هو لم يلق ما كان يأمله من الرحلة تلك و جرى ماجرى في بغداد من الالهانة و الاستخفاف له من الادباء و الشعراء في مجالسهم و البياتي في الحنين إلى الوطن يتوحد مع ابي العلاء، و القصيدة تفوق قدر الظن في قيمتها الفنية و قد توافر فيها من الخصائص ماجعلها من القصائد المتميزة بعدة مظاهر عن غيرها فهي من أنضج القصائد للبياتي فنياً، فقد اختفى عبر مسارها الموضوعي مايسود قصائد من نثرية و تعبير مباشر عن دعاويه السياسية فتغلف مضمونه الانساني - فيها - بوشاح من التصوير الفنى الذى بلغ ذروة الإبداع في بعض الأحيان.

(انس داود، ٣٦٩)

والحق أن استخدام البياتي لشخصية أبي العلاء التراثية أضفى على تجربته الشعرية نوعاً من التجديد و الاصاله عن طريق إكسابها لوناً من الكلية و الشمول بحيث تجاوز الزمن فيمتزج في أطوارها الماضى و الحاضر في وحدة شاملة، و هو ما عبر عنه البياتي نفسه حينما قال؛ إننى عندما أختار هذه الشخصية التاريخية لأتوحد معها إنما أحاول أن اعبر عما عبرت هى عنه، و أن أمنحها قدرة على تخطى الزمن التاريخى بإعطائها نوعاً من المعاصرة.

أدونيس

هو الشاعر البارع الذى اهتم كثيراً بالتراث موظفاً معالمه فقد استلهم من التراث و الاسطورة براعته الشعرية كما اعترف هو نفسه، و فى كلامه نوعٌ من الغموض إلى حدٍ يصعب على المتلقى فهم مقاصده و الحصول على معرفةٍ حول رموزه الشعرية، فقد وظف من التراث الأدبى كثيراً من الشعراء و منهم أبو العلاء المعري فى قطعة شعرية سماها «مرآة لأبي العلاء» قال فيها:

أذكر أنى زُرتُ فى المعرة

عينيك، أصغيتُ إلى خطاك

أذكر أن القبر كان يمشى مقلداً خطاك
و كان حول القبر
صوتك، مثل رجّة، ينام
في جسد الأيام أو في جسد الكلام

(الأعمال الشعرية الكاملة، ١٩٢)

بنوه أدونيس إلى مكانة أبي العلاء في معرة النعمان لأن ذكره و روحه و جسده موجود
هناك حتى عابر السبيل إذا يمرّ بهذه المدينة فأول شيء يخطر بباله أو هو التذكير بأبي العلاء
كشاعر كبير.

قدّم أدونيس في هذه القطعة المتميزة صورة عن معرة النعمان و إن المقطع هنا لا يتابع
الاسقاط على الزمن، بل يدلّ على الرمز بالعينين و الخطوة و الصوت، و حالة الحياة المستمرة
في الزمان باسم ابي العلاء.

والحق أن في شعر ابي العلاء ما هو أبعد من اليأس أو التشاؤم الفردي، بل فيه ايقاع انتهاء
ازدهار الحضارة العربية، لقد كان ابو العلاء يقف على منحدر العصر العباسي اذن رؤياه كشاعر
تنبأ بالظلام الذي تلا، فقد مات في صوته كل شوق و أمل و بدا بعض شعره كأنه تأبين
لحضارة دانية و تعبير عن ألم دفين و مرارة من الحياة و قلق في المصير ألا يقول:

كل بيت للهدم ما تبتنى الور
قاء و السيد الرفيع العماد

(سقط الزند، ١٢)

لهذا كان لا ينبغي أن ينظر إلى تشائم المعريّ على أنه محدود بنفسية الشاعر بل يتعلق
بمصير الانسان، لذلك فقد وظف أدونيس في شعره و إن كان قدره قليلاً لكن المضمون يدلّ
على اهتمام الشعر الحديث أكثر فأكثر إلى مصدر إلهام للنجاة من الانحدار الذي أخذ مجراه في
الادب الحديث، و الشاعر الحديث يعبر عن القضايا الاجتماعية و الفكرية مستمداً صوت
المعريّ الذي كان و لا يزال يعتبر فيلسوف الشعراء.

محمد احمد العزب

شاعر مصري فاز بجائزة الشعر الأولى في مسابقة المجلس الأعلى للفنون بالقاهرة عام ١٩٦٣م له ديوان «مسافر في التاريخ» الذي كتب قصائده الرمزية فيه ووظف الشخصيات التراثية القديمة كثيراً في هذا الديوان و كأبي العلاء المعرّي الذي يبدأ توظيفه بهذه الابيات:

و يصيحون

«المعرّي»

شاعر السقط

رهين المحبسين

فأصلى تحت رجليه

و استجدى الأمان

(مسافر في التاريخ، ٩٢)

كما يبدو من اسم هذه القصيدة تحت عنوان «المحاكمة» قد عبّر الشاعر فيها عن تجربة حياته المرّة و يقول فيها ان الناس ينادون بالمعرّي و يستنجدون به و يشير إلى ألقاب المعرّي و مكانته حيث يرون منه الأمان و يصلّي تحت رجليه قائلاً:

وَهَوَّ فِي رَفَقِ يَقُولُ

يَا رِفَاقِي

لَا تَقُولُوا لِلَّذِي جَاءَ إِلَيْنَا أَيْنَ كَانَ

(المصدر نفسه، ٩٣)

صور محمد أحمد العزب بعفوية غنائية موحية أجواء الانفعالات الشعورية لترسم في التعبير الرمزي ابعاد الحرمان و العذاب اللذين يعاني منهما الانسان العربي في عالم الواقع و يأتي التعبير في اسلوب ساذج و عميق في آن واحد.

و تأتي هذه السذاجة نابضة بالصدق الانساني أثناء اصطدامها بالاحزان و المأسى ألا

تراه يقول:

أين من خارطة الأحياء و الأشياء كان؟
حسبه... قد كان في الدنيا... و في قلب الزمان
عنصرأ يقتات منه العنصران
كأن الشاعر يتطلع في هذه الابيات إلى الثورة على القتلة و الظالمين، و الثورة على التعري
الاخلاقي و المآسى، و يعبر عنها برمزية تلفها موسيقى موحية:
خففوا الوطاء
فما للحرف و الشاعر في المأساة يا قوم يدان!!
و يهيج النار في قلبي

(المصدر نفسه، ٩٤)

فبين الشاعر موقفه ازاء المجتمع موظفاً أبالعلاء المعتقد بالفلسفة الخاصة و ترجيح العقل في
شؤون الحياة فيؤكد أنه ليس في زمنه إزاء المجتمع (بما فيه المأساة) يد قوية و تأثير واضح لكي
يقوم بدور الاصلاح فقط يئن أنين انسان مقيد بالقيود و حوله تدور المشاكل و المصائب،
بعدئذ يقول:

فأهذى في أنفعال
أخرسوا هذا المعرّي..
أو فردّوه يقول الشعر في حزن معاصر
مايزال الشاعر الهارب يحلم
ويغنى للعناصر
ليته يعلم أن الأرض نهذ مستباح
لملايين القياصر!!

(المصدر نفسه، ٩٤)

يدخل الشاعر في صلب التوظيف و يؤكد على أن يكون الشاعر في حزن و صمت و ليس
له دور إلا الهرب و الحلم و الغناء للعناصر، و تنتهي فكرة الشاعر في هذه الاحداث الحزينة و

لابدّ له إما أن يصمت مكتوفة الأيدي ويلجأ إلى مظاهر الطبيعة كالرومانسيين أو يعبر صراحةً عن انزعاجه أو معارضته للواقع الموجود في البلاد العربية، فمحمد احمد العزب يتحدث عن سلبيات الواقع وهمومه وهي أمور عرفها المواطن العربي، ويرى وظيفته في بث الروح الايجابية لتجاوز المحن في المستقبل القريب.

فاروق شوشة

قد وظف الشاعر فاروق شوشة شخصية ابي العلاء في قصيدة «أبو العلاء المعرّي» ونظر إلى حياة ابي العلاء واختار منها ما يتناسب مع تجربته الخاصة من اعتزاله والانغلاق على نفسيته و حفظ اسراره يقول فيها:

الليلُ في «معة النعمان» جاثم عنيد

تلاصفت الواحه كحائطٍ صفيق

وامتدّ من حباله الغلاظُ وجهُ فاتكٍ جسور

(الأعمال الشعرية الكاملة، ٢٣٥)

وجد الشاعر فاروق شوشة الليل في معة النعمان جاثماً عنيداً يطبق عليها الديجور والظلام تُشمّ من الكلمات رائحة الضيق والخناق المطبق، فيجد القارئ اسرار الحياة في مقابل قصور أبصار الانسان المعاصر:

الكون يا صحاب في قلوبنا يضيء

حين تميلُ للرحيل زهوة العيون

فتبصرون ... يالهول ما ستبصرون!

و تشرق الجوانح الدفينة.

(المصدر نفسه، ٢٣٦)

و دائرة العالم موسّعة جداً و من يجد العالم في زهو العينين مشرقاً يحصل على المعارف الكثيرة و ينتج من هذه المقابلة نوعاً من المفارقة التصويرية حيث يستطيع الضيرر ببصيرته أن

يعانق سر الحياة حيث تساقط الأوهام و الخوف و يصبح الموت صدئاً و تصبح الحياة حزمة من الظلال بينما يظل المبصرون يتيهون و يتمنون لو استطاعوا أن يصلوا إلى صفاء عالم المحسبين بما فيه من ضياء البصيرة، في هذه الابيات لمحات كثيرة موظفة عند فاروق لتدل على الدلالات المعاصرة و للتعبير عن التجارب الشعرية المعاصرة و الشاعر أحسن التصوير و في الأبيات التالية يسأل:

هل آن للإنسان أن يجاوز الآلام
مهجرأً من عالم الملل و السامة
إلى صفاء المحسبين
و عالم النقاء و الكرامة!

(المصدر نفسه، ٢٣٨)

المتتبع لحياة فاروق شوشة يرى فيها الظلام المطبق و الدواعي الكثيرة إلى التشاؤم لذلك قد صور حياته أو تجربته موظفاً شخصية أبي العلاء لأنه هو الممثل الحقيقي للقضية الفكرية و التأمل في الحياة لكن الشاعر أخذ موقف أبي العلاء السلبي تجاه الحياة و أضفى عليها الدلالات المعاصرة أما البياتي كما مرّ فقد اعطاه موقفاً إيجابياً لذلك تفتن البياتي أكثر في التعامل مع التراث و هنا يدخل مباشرةً في مناداة الشاعر القديم:

يا شيخنا، يا شيخنا الضرير

هل آن للإنسان أن يطاول السماء

بنبض قلبه الصغير حين تومض العينان بالأحلام!

بقبضة لم تتسع للمسة السلام

لكنها تنغوص في ذبائح الدمار و الحطام

(المصدر نفسه: ٢٣٩)

و يعدّ فاروق شوشة القدر كل شيء في الحياة، و يسأل أبا العلاء مباشرةً لكن كما يتضح يجب في الاستدعاء أو التوظيف أن يختفى الموظف ولا يظهر كمتكلم بل يتكلم على لسان الشاعر القديم الذي وُظفت شخصيته.

نجيب سرور:

هو من الشعراء المعاصرين الذين وظفوا شخصية أبي العلاء و استدعوها في شعرهم و قد انشد قصيدة «حوار مع ابي العلاء المعرّي» إذ عقد فيها حواراً شاملاً يستعرض فيه مع أبي العلاء أحوال الحياة والشعر و الشعراء و ما وصل إليه الشعر من الرداءة والضعف والقصور، يستهلها الشاعر:

عم صباحاً يا معلم!
عم مساءً كان أولى أن تقول
فصباحي كالمساء

(ديوان لزوم ما يلزم، ٣٧)

تظهر النزعة التشاؤمية في الشعر بما يساوي الصباح مساءً و يستمر في القول:

سيدي كم حرت فطى امرك... حقاً لست أفهم
كيف يغدو تائر القوم و لوعاً بالقيود
- كنت أهفو للخلود

- كان يغنيك الذي يلزم عما ليس يلزم

- لا تكونوا كالثعالب

تدعى في العجز زهداً فتسمى الكرم حصرم

(المصدر نفسه، ٣٨)

يبدو أن نجيب سرور بدأ بالشكوى مخاطباً أبا العلاء بما وصل إليه الشعر و الشعراء ويشير

إلى ما تمسك به أبا العلاء من المبادئ التي لا تلزم و يقول:

ما عجزنا و يمينا بالخليل
كلنا قلنا من الشعر المقفى

قبل أن ننظم من غير المقفى

(المصدر نفسه، ٤١)

فيتعجب الشاعر مشيراً إلى قول الشعر المفقى بعد ذلك أضفى أسلوب الحوار فى القصيدة و يخاطب المعرى:

هات شيئاً من مفاك القديم

هـا هـنا غـاية البـدن	هـيئوا اللـحد و الكفن
و غـدت تـطلب السـكن	مـلت النـفس عـيشها
لـيتها تـقطع الـرسن	شـدت الـروح للـثرى
غـاب فـى التـيه و أدقن	عـلها تـعرف الـذى

(المصدر نفسه، ص ٤٢)

فهذه الأبيات و إن كانت معناها و مغزاها من عقيدة الشاعر، أبى العلاء، لكن هنا وظفت فى ادب نجيب سرور و إن دلالة إيراد الشاعر لهذه النماذج واضحة و هى «نقد الغثا الذى يملأ الجو الثقافى، إن المضمون الحقيقى للقصيدة و ديوان الشاعر هو نقد لاذع لكل إحباطات المجتمع و أدرائه». (أحمد مرتضى عبده، ١٩٨٥: ٥٠)

و يظهر أن نجيب سرور لم يستتر وراء ملامح شخصية أبى العلاء ليبت من خلالها خواطره و افكاره كما رأينا عند البياتى- و إنما حاول أن يضى على الشكل الفنى لتجربته لونا من الدرامية لإستخدام الحوار كوسيلة فنية للتعبير عن ملامح و قضايا عصرية، و قد لجأ الشاعر بسبب تشعب الحوار حول عدد من القضايا إلى بعض الاشارات أو الايحاءات الثقافية و ذكر بعض أبيات أبى العلاء عند مناقشة حقيقة عزله و غموض موقفه قائلاً:

أبها الثائر لِمَ لُذت بدارك؟

لِمَ لَمْ ترحل؟

إلى أين الرحيل؟

أى فرق بين أن أنفى بعصرى؟
لوتروم الصدق - أو أنفى بدارى
أو أرانى ضائعاً فى غير دارى؟

(ديوان لزوم مايلزم، ٤٤)

قد استدعى الشاعر شخصية المعري و ما تتميز بها من العزلة و التشاؤم و رفض الحقائق الموجودة، و استفاد من خصائص أبي العلاء و ماينويه من الأفكار و ضمّنها فى قصيدته بشكل الحوار و اعطى للقصيدة اللون الدرامى و كما يتضح من عنوانها و الأفكار فى طياتها قد استمدت من جرأة و جسارة أبي العلاء للتصريح بما يجرى فى ذهنه.

المعارضات

من طرق اتصال الشعراء المعاصرين بالتراث الأدبى المعارضات التى اهتمّ بها بعض الشعراء المحدثين لقصائد من المعري، و يبدو أن همّ هؤلاء من المعارضة كان «بلوغ المستوى الفنى الراقى الذى وصل اليه كبار الشعراء القدامى و الارتفاع عليه إن أمكن». (عزالدين اسماعيل، ١٩٦٧: ٦٣)

من الشعراء الذين عارضوا أبا العلاء؛ أحمد شوقى و ايليا أبو ماضى و إبراهيم صبرى،: قد عارض شوقى أبا العلاء بقصيدتين و فى المعارضة مايدلّ على الصلة القائمة بين الشاعرين؛ فأولى القصائد التى عارض فيها شوقى هى رثاء إسماعيل صبرى و مطلعها:

اجل و إن طال الزمان مواف أخلى يديك من الخليل الواقى

(الشوقيات، ١٠٤)

و هى معارضة لقصيدة أبي العلاء فى رثاء الشريف أبى أحمد الموسوى و مطلعها:
أودى فليت الحاديات كفاف مال المُسيف و عنبر المستاف

(سقط الزند، ٣١)

القصيدتان متفتتان فى الوزن و القافية و فى الموضوع إلى حد بعيد و قد أخذ العقاد هذه

المعارضة على شوقي و تجاوز حدّ النقد و المناقشة إلى الهجوم عليه و قلل من قدر القصيدة إذا ما قيست بقصيدة المعري.

قد حاول شوقي أن يتخذ بمعارضة قصيدة أبي العلاء سببياً إلى المثل الفنى و لكنه فى كثير من الحالات لم يستطع أن يتجاوز ذلك المثل أو الارتفاع عليه و هذا لا يعيب شوقي، لأنه لم يكن يقصد من المعارضات أن تحمل كل جديد و أن تقدم تجارب غير ما يعنيه أو يعانیه فى صورها و ايقاعها إذ كان لشعراء حركة الاحياء دور يتمثل فى استلهاام التراث لذلك كان من الطبيعى أن يبدأ نتاجهم فى معارضتهم بالتقليد.

و قد نظم ايليا أبو ماضى قصيدة فى رثاء أبيه و فيها يقول:

طوى بعض نفسى إذ طواك الثرى منى وذا بعضها الثانى يفيض به جفنى أبى خاننى
فبيك الردى فتقوضت مقاصير أحلامى كبيت من التبن

(الديوان، ٧٢٩)

و هى معارضة لقصيدة أبي العلاء التى رثا فيها أباه و مطلعها:

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن فلا جاني إلا عبوس من الدجن

(سقط الزند، ١٣)

و القصيدتان متماثلتان فى الوزن و القافية و الموضوع و الافكار الرئيسة العامة فتبدأ القصيدتان بأبيات تبين مدى الحزن و الألم للمصيبة التى حلّت بهما، اذا نمعن النظر فيهما: ندرك مدى بساطة أسلوب أبي ماضى و مجانية التكلف و المبالغة و فى قصيدة أبي العلاء نلاحظ فى الاسلوب أمرين هما: التلاعب بالالفاظ و المبالغة المتكلفة.

و هذا كله يؤكّد أن أبا ماضى رغم حرصه على التعبير عن ذاته قام بمجاراة أبي العلاء فى افكاره و فى الفاظه و تراكيبه و لعل اختيار أبي ماضى نظام قصيدة المعارضة يدلّ على مانجده فيها من تأثر واضح و لم تعد المعارضة عنده بغرض المحاكاة أو التحدى بل هى لتسجيل التراث دون اضافة دلالات معاصرة عليه، و دون توظيفه فنياً للتعبير عن قضايا جديدة كما هى الحال بالنسبة لكثير من معارضات شعراء مدرسة الإحياء و اصبح عليه أن ينظر إلى التراث

من خلال رؤية عميقة يحاول من خلالها اكتشاف الكثير من القيم الفكرية و الفنية، وذلك من خلال قراءته و تمثله ما يتجاوب مع همومه المعاصرة و رفض ما لا يصلح منه للتعبير عن تجارب جديدة.

و مجمل القول أن معارضة الشعراء المعاصرين لأبي العلاء المعرّي تمثل إضافة تراثية للشعر الحديث، ففيها نوعٌ من المزاوجة بين الاصالته و المعاصرة، استطاع الشاعر أن يعبر من خلالها عن انتمائه إلى التراث باستلهاهم القصائد المشهورة و معارضتها و اتخاذ ذلك وسيلة للإفصاح عن مضامين فكرية و مشاعر ذاتية.

النتيجة:

في نهاية هذه المقالة يستنتج أن أبا العلاء المعرّي بشخصيته المتميزة و علمه الواسع و أدبه الرفيع و موهبته الشعرية أثر في الشعراء المعاصرين كثيراً فهذا التأثير يتمثل في تقديم بيت أو أبيات من قصائده الشعرية في شعر الشعراء المعاصرين متمنين و متفائلين أن تكون قصائدهم في مستوى شعر أبي العلاء فنياً و الاسلوب الآخر لتأثر الشعراء المعاصرين بأبي العلاء هو انتهاج نهجه الفني في لزوم ما لا يلزم فالشعراء؛ احمد محييم، و عبداللطيف عبدالحليم و غيرهما قد تمسكوا بالأسس التي لزمها ابو العلاء في أثره؛ و الشعراء المعاصرون قد وظّفوا شخصية أبي العلاء لعدة اسباب بملامحه الواضحة متمثلاً فيها. النمودج الفكرى و الأخلاقى و الفنى المتكامل فى الادب القديم للتعبير عن التجارب الشعرية المعاصرة و من الشعراء الذين استلهموا أبا العلاء فى ادبهم؛ عبد الوهاب البياتى، فاروق شوشة، نجيب سرور و ادونيس و محمد احمد العزب و الباحث اهتم إلى جانب هذه الطرق الثلاثة بقضية لها دور وافر فى الشعر الحديث و هى المعارضات الشعرية التى قد عارض أبا العلاء المعرى شعراء كبار أمثال احمد شوقى و ايليا ابوماضى و ابراهيم صبرى الذين قصدوا بها إحياء التراث الأدبى فى الشعر.

المراجع

- ابوماضي، ايليا، ديوان، بيروت، دارالعودة، ١٩٨٩م.
- ادونيس (على احمد سعيد)، الاعمال الشعرية الكاملة، ج ٢، ط ٤، بيروت، دارالفكر، ١٩٥٦م.
- اسماعيل، عزالدين، الشعر العربي المعاصر، القاهرة، دارالكتاب العربي، ١٩٦٧م.
- البياتي، عبدالوهاب، ديوان «سفر الفقر و الثورة»، بيروت، دارالآداب، ١٩٦٥م.
- الجندي، على، البلاغة الفنية، ط ٢، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٦٦م.
- حسين، طه، مع ابي العلاء في سجنه، القاهرة، دارالمعارف، ١٩٦٣م.
- داود، انس، الأسطورة في الشعر العربي الحديث، ط ٣، القاهرة، دارالمعارف، ١٩٩٢م.
- راشدين، جوزيف، فجر الحياة، ترجمة عبدالحليم منتصر، القاهرة، مؤسسة فرنكلين، ١٩٦٣م.
- سرور نجيب، ديوان لزوم مايلزم، ط ٢، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٥م.
- شروح سقط الزند، ج ١ و ٢، تحقيق لجنة باشراف د. طه حسين، القاهرة، الدار القومية للطباعة، ١٩٦٤م.
- شوشة، فاروق، الأعمال الشعرية الكاملة، المجلد الاول، بيروت، دارالعودة، ٢٠٠٤م.
- شوقي، احمد، الشوقيات، ج ٣، القاهرة، المكتبة التجارية للطبع، ١٩٨٣م.
- عبدالحليم، عبداللطيف، لزوميات و قصائد اخرى، القاهرة، دارالثقافة العربية، ١٩٨٥م.
- عبدالصبور، صلاح، حياتي في الشعر، ج ٣، بيروت، دارالعودة، ١٩٧٣م.
- عبدالعزيز، ملكة، ديوان «اغنيات الليل»، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر، ١٩٧١م.
- عبد، احمد مرتضى، قراءة في الشعر المعاصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.
- العزب، محمد احمد، مسافر في التاريخ، دمشق، منشورات وزارة الثقافة و السياحة، ١٩٧٠م.
- المعري، أبو العلاء، ديوان لزوم ما لا يلزم، ج ١، به كوشش امين عبدالعزيز، بيروت، دارالفكر، ١٩٥٦م.
- المعري، أبو العلاء، سقط الزند، به كوشش ابراهيم الزين، بيروت، دارالفكر، ١٩٥٦م.
- الملائكة، نازك، الصومعة و الشارقة الحمراء؛ دراسة في شعر محمود طه، بيروت، دارالعلم للملايين، ١٩٧٩م.
- ناجي، هلال، الزهاوي و ديوانه المفقود، القاهرة، دارالعرب البستاني، ١٩٦٣م.